

كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحيث ترى المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾. فله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل مطلوب [محبوب]، ونجوا من كل شر ومرهوب، فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به^(١)، وهم قد طغىء نورهم وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين: ﴿انظرونا نقبس من نوركم﴾. أي: أهملونا لتنال من نوركم ما نمشي به، لننجو من العذاب، فـ ﴿قيل﴾ لهم: ﴿ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾. أي: إن كان ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، ﴿فضرب﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بسور﴾ أي: حائط منيع، وحصن حصين، ﴿له باب باطنه فيه الرحمة﴾ وهو الذي يلي المؤمنين، و﴿ظاهره من قبله العذاب﴾ وهو الذي يلي المنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعاً وترحماً: ﴿ألم تكن معكم﴾ في الدنيا تقول: «لا إله إلا الله»، وتصلي وتصوم وتجاهد، وتعمل مثل عملكم؟

﴿قالوا بلى﴾ كنتم معنا في الدنيا، وعملتم [في الظاهر] مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية [صادقة] صالحة، بل ﴿فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم﴾ أي: شككتهم في خبير الله الذي لا يقبل شكاً، و﴿وغرتمكم الأماني﴾ الباطلة، حيث^(٢) تمنيتم أن تنالوا مثال المؤمنين، وأنتم غير موقنين، ﴿حتى

يتوهم منه نقص وقدح في المفضل، احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وكلاً وعد الله المحسن﴾ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة [كلهم]، رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان، ووعدهم الجنة، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازي كلأ منكم على ما يعلمه من عمله، ثم حث على النفقة في سبيله، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهيز له، فقال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ وهي النفقة [الطيبة] التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى [حيث] سماه قرضاً، والمال ماله، والعبد عبده، ووعده بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة عملها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن، ولذلك قال:

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾ * يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم ألم تكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتمكم الأماني حتى جاء أمر الله وغرتمكم بالله الفرور * قال يوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ماؤاكم النار هي مولاكم وبش المصير﴾ يقول تعالى - مبيناً لفضل الإيمان واغتياب أهله به يوم القيامة - : ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ أي: إذا



عنها، ثم يعود الملأ إلى مالكة تبارك وتعالى، فاعتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة، ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح الحديدية، حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش عما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجا، واعتز الإسلام عزاً عظيماً، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرّون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظم درجة وأجرأ وثواباً ممن لم يسلم ويقاقل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة، غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين الأمور قد

(١) في ب: يمشون بنورهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: التي.

جاء أمر الله^١، أي: حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة.

﴿وغركم بالله الغرور﴾ وهو الشيطان، الذي زين لكم الكفر والرب، فاطمأنتم به، ووثقت بوعده، وصدقتكم خبره، ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾ فلو اقتديتم بمثل الأرض ذهباً ومثله معه، لما تقبل منكم، ﴿مأواكم النار﴾ أي: مستقركم، ﴿هي مولاكم﴾ التي تتولاكم وتضمكم إليها، ﴿وبئس المصير﴾ النار.

[قال تعالى: ﴿وأما من خفت موازينه﴾ فأمه هاوية * وما أدراك ما هي * نار حامية﴾.

﴿١٦- ١٧﴾ ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ * اعلموا أن الله يجيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات، والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمتها، فعاتب الله المؤمنين [على عدم ذلك]، فقال: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾.

أي: ألم يجيء^(١) الوقت الذي تلين به قلوبهم^(٢) وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويجاسبوا أنفسهم على ذلك، ﴿ولا

يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد﴾ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب خشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، ﴿فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزله الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينسفي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك^(٣) سبب لقسوة القلب وجود العين.

﴿اعلموا أن الله يجيي الأرض بعد موتها﴾ قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يجيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يجيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله، وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يتدب بآيات الله [لم] ينقد لشرائع الله.

﴿١٨- ١٩﴾ ﴿إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم﴾ * والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ ﴿إن المصدقين والمصدقات﴾ بالتشديد أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية، ﴿واقترضوا الله قرضاً حسناً﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخراً لهم^(٤) عند ربهم، ﴿يضاعف لهم﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ﴿ولهم

يوم ترمي السموات والارض من نور وتكون السموات والارض من نور وتكون السموات والارض من نور وتكون السموات والارض من نور... ﴿إن المصدقين والمصدقات﴾ بالتشديد أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية، ﴿واقترضوا الله قرضاً حسناً﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخراً لهم^(٤) عند ربهم، ﴿يضاعف لهم﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ﴿ولهم

أجر كريم﴾ وهو ما أعده الله لهم في الجنة، مما لا تعلمه النفوس.

﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ والإيمان عند أهل السنة: هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء.

[وقوله: ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ كما ورد في الحديث الصحيح: ﴿إن في الجنة مئة درجة، ما بين الدرجتين^(٥)﴾ كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم، وقربهم إلى الله تعالى.

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق، المتصدقين، والصديقين، والشهداء، وأصحاب الجحيم، فالمتصدقون الذين كان جُل عملهم الإحسان إلى الخلق، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم، خصوصاً

(٤) في ب: ذخر.

(٥) في ب: ما بين كل درجتين.

(١) في ب: ألم يأت.

(٢) في ب: الذي به تلين قلوبكم.

(٣) في ب: فإنه.



بالنفع بالمال في سبيل الله .

والصديقون هم الذينكملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلم النافع، واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله للإعلاء كلمة الله، وبدلوا أنفسهم وأموالهم فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله .

وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده، فهو لاء مآلهم الجنة، وإن حصل لهم عقوبة ببعض ما فعل .

﴿٢٠ - ٢١﴾ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يبيح فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور * سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية

أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله^(١)، وعماً أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، بخلاف أهل اليقظة وعمال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته وعبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقرهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي .

[وقوله]: **«وزينة»** أي: تزين في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور وإجاه . [وغير ذلك] **«وتفاخر بينكم»** أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، **«وتكاثر في الأموال والأولاد»** أي: كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهذا مصداقه، وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها .

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً ولم يجعلها مستقراً، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله^(٢)، وإذا رأى من يكآثره وينافسه بالأموال والأولاد، نافسه بالأعمال الصالحة .

ثم ضرب للدنيا مثلاً بحيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار، الذين قصرُوا همهم ونظرهم إلى الدنيا^(٣) جاءها من أمر الله [ما أتلفها] فهاجت وبيست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رُوي لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا، بينما هي زاوية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما

أذهبها^(٤) من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوى الكفن، فبتاً لمن أضحت هي غاية أميته ولها عمله وسعيه .

وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: **«وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان»** أي: حال الآخرة، ما يتخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم، وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجراً على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله .

وأما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله، يحل من أحله^(٥) به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعياً .

فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: **«وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»** أي: إلا متاع يتمتع به ويتفجع به، ويستدفع به الحاجات، لا يفتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرم بالله الغرور .

ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال: **«وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله»** والإيمان بالله ورسله^(٦)، يدخل فيه أصول الدين وفروعها، **«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»** أي: هذا

(٥) في ب: من أحله عليه .

(٦) كذا في ب، وفي أ: ورسوله .

(٣) في ب: همهم ونظرهم .

(٤) في ب: فأذهبها .

(١) في ب: بلهو قلوبهم وغفلتهم .

(٢) في ب: إلى ذلك .

الذي يبينه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم^(١)، من أعظم منته على عباده وفضله. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يُحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما ينشئ عليه عباده^(٢).

﴿٢٢ - ٢٤﴾ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ولقد أرسلنا رسالنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب * أي: ليقوم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيثبتين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون ضرورياً.

﴿إن الله قوي عزيز﴾ أي: لا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يبطل أوليائه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب، وقرن تعالى في هذا^(٣) الموضوع بين الكتاب والحديد، لأن هذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحججة والبرهان والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله،

إذا حوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة.

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي: يجمعون بين الأمرين الذميين، الذين كل منهما كاف في الشر البخل: وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم ببخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثوهم على هذا الخلق الذميمة بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها، ﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقنأهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمده عليه ويشئ ويعظم.

﴿لقد أرسلنا رسالنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز * ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في فرسهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون * ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة وربانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسالنا بالبينات﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاؤوا به وحقيقته.

﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم، ما ينفعهم في دينهم ودنياهم،

الذي يبينه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم^(١)، من أعظم منته على عباده وفضله. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يُحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما ينشئ عليه عباده^(٢).

﴿٢٢ - ٢٤﴾ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير

وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الأبواب، ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشرفوا إليه، لعلهم أن يكون ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بظر وأشر، لعلهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومثته، فيشتغلوا بشكر من أوى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثم

(١) في ب: وأن ثواب الله بالأجر الجزيل، والثواب الجميل.

(٢) في ب: أخذ من خلقه.

(٣) في ب: بهذا.

وكمال شريعته التي شرعها على السنة رسله .

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً، ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين، ﴿فمنهم﴾ أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مهتد﴾ بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم.

﴿وكثير منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن [طاعة الله و] طاعة الرسل والأنبياء^(١)، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ .

﴿ثم قفينا﴾ أي: أتبعنا ﴿على آثارهم برسلانا وقفينا بعيسى ابن مريم﴾ خصَّ الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصراني، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام، ﴿وأتيناها الإنجيل﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة، ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة﴾ كما قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصراني ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ الآيات .

ولهذا كان النصراني ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام .

﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم، عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا الوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله

تعالى، ومع ذلك ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم .

فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم .

ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ أي: الذين آمنوا آمنوا بمحمد ﷺ، مع إيمانهم بعيسى، كل أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ .

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ لثلاث يعلم أهل الكتاب ألا يقدرُونَ على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وهذا الخطاب، يحتمل أنه [خطاب] لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿كفلين من رحمته﴾ أي: نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ

ويحتمل أن يكون الأمر عاماً يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله ﴿كفلين من رحمته﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن الثنية المراد بها تكرار الإتياء مرة بعد أخرى .

﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ أي: يعطيكم علماً وهدى ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات .

﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فلا يستكثر^(٢) هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض، فلا يجلو مخلوق من فضله طرفه عين ولا أقل من ذلك . [وقوله] ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرُونَ على شيء من فضل الله﴾ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً، واتقى الله، وآمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم^(٣) بأنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضل الله أي: لا يجحرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لئن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ ويتمنون على الله الأمانى الفاسدة، فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله، لهم كفلان من رحمته، ونور، ومغفرة، رغباً على أنوف أهل الكتاب، ولعلموا ﴿أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يقدر قدره .

تم تفسير سورة الحديد،
والله الحمد والمئة، والحمد لله

تفسير سورة قد سمع الله وهي مدنية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ الذين يظاهرون منكم من نساءهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور﴾ الذين يظاهرون من نساءهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير

(١) في ب: طاعة رسله .

(٢) في ب: فلا يستغرب كثرة .

(٣) في ب: لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم .

